ساكن الكتب

رنا حلمي

أغلقت الباب خلفي بعنف والدموع تنهمر على خدي وذلك قبل أن أنظر إلى يدي اليمنى التي تورمت من كثرة الكتابة، كتابة تلك الأرقام التي لا حصر لها.

لماذا يجب علي حفظهم؟ لماذا يجب أن أتذكر الحروف الأبجدية بالترتيب؟ تسؤلات دارت في خلدي بينما أنا أنظر الي الحائط الأبيض في غرفتي بجانب سريري وانا أبكي بحرقة وأتذكر كيف عنفتني أمي أثناء الدراسة معها.

كبرت وصرت طالباً في الأعدادية، لاتزال درجاتي غير مرتفعة، لا أفهم السبب، فأنا أذاكر طوال النهار كما يفعل أخوتي لكن دون فائدة، هم يحصلون على أعلى المراتب بينما أنا أكتفى بالبقاء في الوسط مع الطلاب العاديين.

بدأ الأكتئاب يتسلل إلى شيئاً فشيئاً وصرت أكره الكتب وأشاهد التلفار، الذي أعشقة كثيراً، طوال اليوم، بقيت على هذا الحال طوال

فترة الأعدادية، وبطبيعة الحال تدنيت درجاتي وأخذت نصيبي من تعنيف أمي لي وكذلك من سخرية أخوتي الكبار النابغين الناجحين مني.

ولكن ما أهمية الدراسة أذا كنت سأحصل على درجات متوسطة على أي حال؟ سأستمتع بحياتي فالمرء لا يعيش ألا مرة واحد.

أو هذا ما ظننته، مع مرور الوقت وحين بدأت الثانوية العامة، وجدت أن أخوتي يحصلون على كل ما يتمنونه من والداي الذان يفتخران بأبنائهم العباقرة تاركين أبنهم الصغير العادي غير العبقري والذي هو أنا، وهذا ما حرك في عجلة التحدي التي ظننتها قد صدأت منذ طفولتي.

أشتعلت النيران بداخلي، أريد أن أريهم انني أيضاً شخص ناجح يستحق أن يفتخر به لهذا دخلت غرفتي وأغلقت الباب من خلفي ووضعت كتبي جميعها على مكتبي، وجلست على الكرسي أمامها ثم تأملتها لدقائق ثم أغلقت عيني وأنا أفكر في أن علي أن أضع خطة للدراسة، خطة عبقرية ستبهر الجميع، ستجعلني أصير من أوائل

الثانوية العامة وأدخل الحلم الكبير، كلية الطب البشري كما فعل أخوتي الكبار، ثم سأتفوق عليهم في هذا المجال وأصير طبيباً مشهوراً يتاهفت الوزراء ورجال الأعمال لمقابلته وحينها سيفتخر بي والداي ويعاملاني كما أستحق.

من دون وعي أبتسمت أبتسامة متهكمة أزلتها حين أدركتها ثم فتحت عيني مجدداً أنظر إلى الكتب وهنا لاحظت كتاب لم أره من قبل موضوع أمامي مباشرة، لونه أزرق داكن، عادي لا زخارف فيه، وفي المنتصف، هناك رسمة لطفل صغير يبدوا في الثالثة أو الرابعة من عمره،يقف في الفراغ الأزرق بتعبير هاديء، يحدق في الفراغ بأبتسامة بريئة، شعره الذهبي الناعم ينسدل على وجه ليغطي حاجبيه فوق أعينه الخضراء، يرتدي قميص قصير الأكمام أبيض اللون وبنطال جينز وردي اللون.

حدقت فيه لفترة بأستغراب، متى وصل إلى هنا؟ رفعته بيدي فوجدته خفيف ولم لا؟ فأوراقه لا يبدوا أنها تتعدى المئة، قلبته بين يدي

عدة مرات ولكن لم أجد أي كتابة عليه ففتحته، وجدت أول صفحة بيضاء تمام ألا من كتابة صغيرة أنتصفتها فقرأتها وكانت كالأتي:

- مرحباً، أنا أدعى ساكن الكتب، هل تملك قلماً؟

بدا الأمر ممتعاً، ربما يكون أحد تلك الكتب التفاعلية والتي تتغير قصتها حسب ما تختار فتحمست ونسيت أنني وجدته أمامي فجأة، وهذا ما ندمت عليه لاحقاً، وأمسكت قلم رصاص كان موضوع وسط الكتب على مكتبي ثم قلبت الصفحة والتي كان مكتوب فيها:

- أنا هنا لمساعدتك، هل تريد النجاح؟ أكتب أجابتك في الفراغ بالأسفل

أبتسمت وكتبت "نعم" ثم وجهت نظري إلى الصفحة المقابلة فوجدها فارغة فقلبتها ووجدت الأتي مكتوباً في الصفحة التي تلتها:

- خطك سيء لا عجب في أنك لا تحصل على درجات عالية

فكرت في أنه ربما يكون محقاً وأن الكاتب قد أبدع هنا فربما يكون خطي هو السبب حقاً، ثم أكملت القراءة:

- ولكن لا تقلق أنا سأساعدك في التفوق وأبهار من حولك ولكن أولاً أخبرني ما هو حلمك؟

فكرت في حلمي الذي عزمت عليه منذ قليل فكتبت "أشهر طبيب حول العالم" ثم حركت بصري إلى الصفحة المقابلة فوجدتها خالية أيضاً فقلبتها ووجدت ما يلي:

- همم..طبيب؟

حملقت في تلك الكلمات في دهشة وأنا أتسائل كيف عرف ما سأكتبه ولكن سرعان ما أنتبهت إلى أن هذا هو حلم تسعين بالمائة من المصريين ولا عجب في أن الكاتب أستطاع أن يخمن حلمه هو الأخر فأكمل القراءة:

- الجميع تقريباً يملك نفس الحلم، أمر ممل، ولكنني سأساعدك كما وعدك، سأجعلك عبقرياً كأينشتاين، بنك معرفة كنيكولاس كوبرنيكوس، حالم كليوناردو دافينشي وأخيراً وليس أخراً مثقفاً ك يوهان غوته، ما رأيك؟ هل توافق؟ أذا وافقت، أكتب موافق ووقع بأسمك بجانبها.

ضحكت في تهكم وأنا لا أعلم نصف من ذكرهم الكاتب وفكرت أنني لو أملك نصف ذكاء العالمين الأخرين لكنت الأن

متخرج من أشهر الجامعات حول العالم، ولكنني قررت أن أستمر في اللعبة وأرى ما يهدف إليه الكاتب فكتبت "موافق" ووقعت بجانبها ثم قلبت الصفحة فوجدت عبارة واحدة:

- وقع هنا مجدداً كأخر تأكيد

هززت رأسي في ملل ووقعت مجدداً ثم قلبت الصفحة فوجدت العبارة التي هزت كياني وندمت عليها ما بقي من عمري:

- أحسنت، الأن وبعد أن وافقت على التعاقد مني، أريد منك أن تقرأ الثمن المذكور في الصفحة التي قبل السابقة حتى تتذكره جيداً

أستغربت كثيراً، فأنا لم أقرأ أي شيء يتحدث عن ثمن، ولكن تذكرت، أنا لم أنظر إلى الصفحة المقابلة للصفحة التي قرأتها لأنني أفترضت أنها فارغة كسابقاتها فقلبت الصفحة التي أقف عليها للخلف وأسقطت بصري على الصفحة المنشودة وقد كان، وجدت كتابة صغيرة مكتوبة باللون البني في أسفل الصفحة الفارغة، وكانت:

- قبل أن تؤكد على موافقتك عليك بمعرفة الثمن ألا وهو أنك بعد أن تنتهي من الدراسات العليا سيكون عليك أن لا تفتح أي كتاب وأن فعلت سأتي لألتهمك.

دق قلبي سريعاً كأنني أقرأ كتاب رعب ولكن سرعان ما فكرت في أن هذا محض هراء فقلبت الصفحات حتى وصلت إلى أخر ما قرأت وكتبت "أنت لا تخيفني فأنت لست حقيقي" ثم قلبت الصفحة ووجدت هذه الكتابة:

- أه حقاً؟ هل تعتقد حقاً أنني لست حقيقياً؟

تنهدت في ملل وأنا أفكر أن كل هذا من الممكن أن يستنبطه الكاتب بسهولة ثم كتبت:

- نعم

فجأة بدأت كلمات بالظهور في الصفحة المقابلة، الحرف تلو الحرف في سرعة غير أنسانية وأنا أحدق فيها في مزيج من الذهول والخوف وقد نسيت أن أتنفس، وأخيراًتكونت عبارة قرأتها في وأنا أحاول أن أتنفس:

- أذا ماذا عن ذلك الوشم الذي رسم من العدم على ظهر كفك الأيمن؟

حركت عيني بسرعة إلى كفي الأيمن ووجدته، رسم ليداً صغيرة تحمل سكينة جزار، ملونة باللون الأحمر.

صرخت بصوت عالي وقفزت من على الكرسي وحاولت مسحها بيدي الأخرى ولكن دون جدوى فركضت إلى الحمام ورحت أفرك الصابون فيها حتى أحمر جلدي ولكن دون فائدة، وهنا دخلت علي أمي وسألتني ما بي ولكن لسبب ما لم أستطع أجابتها، حاولت أن أخبرها ولكن لم تخرج الكلمات كأن هناك قوة جبارة تمنعني من ذلك، كان شعوراً مرعباً، وفجأة شعرت بعقلي ينبض بشدة إلى أن أعتمرني آلم شديد في رأسي كأن هناك ألاف الحقن تحقن السوائل فيه، فأمسكت به ورحت أصرخ في آلم حتى فقدت الوعي.

أستيقظت بعد فترة من الوقت لم أعلم مدتها تماماً فوجدت نفسي على سريري، رفعت يدي لأنظر إليها ولكنها آلمتني فألتفت برأسي لأرى سبب هذا الألم فوجدت أبرة موصولة بخرطوم شفاف منغرسة فيها ففهمت أن أمي أحضرت الطبيب والذي بدوره قام بتعليق محاليل

كلوريد الصوديوم، وهنا أنتبهت إلى أنني أعرف ما هي تركيبة المحلول الملحي رغم أنني لم أقرأهذا في حياتي فأمعنت النظر في يدي فوجدت ان الوشم لايزال هناك ثم حركت نظري وأنا أشعر برعب شديد إلى مكتبي فلم أرى الكتاب.

ومنذ ذلك الحين لم أرى الكتاب مجدداً، لقد اختفى،ولكن وجدت نفسي عبقريا، أفهم مما تتكون كل الأشياء وأعرف تاريخ كل البلاد وكذلك علم الفلسفة والمنطق ولم يكن لي نظير في العلوم والرياضيات.

تفوقت في الثانوية العامة ودخلت كلية الطب البشري وتخرجت منها بأمتياز وحصلت على منحة لتكملة الدراسة في الخارج وأنهيت الماجستير والدكتوراه في سنتين فقط وسط أنبهار العالم، وكنت كل يوم أذهب إلى مقابلات تلفزونية وأكتشفت أنني أستطيع التحدث بجميع اللغات المعروفة وغالباً الغير معروفة.

لقد غير ساكن الكتب حياتي كما وعد، نعم لقد أمنت بوجوده، ولكن الأن وقد أنتهيت من الدراسات العليا علي الحذر من فتح أي كتاب مهما كان الثمن، وعلى أي حال أن لا أحتاج إلى أن أفتح أي

كتاب فأنا عبقري ولدي كل المعلومات التي أحتاج إليها في عقلي بالأضافة إلى أنني بأمكانني أستخدام الحاسب الألي.

مرت السنين وفتحت المستشفى الخاصة بي وفي أحد الأيام جاء إلى مساعدي وهو يحمل حافظة ملفات، وأخبرني بأنني علي أن أراجع المستندات المحفوظة فيها لأهميتها ثم رحل تاركاً أياها على مكتبي الفخم.

رمقتها بطرف عيني، أنها حافظة مستندات، تشبه الكتاب ولكن كل ما بداخلها هو ورق تم خرمه من المنتصف وأدخال مشبك حديدي ليمسكه، ولكنها تبدوا كالكتاب، في هذه اللحظة بدأ قلبي يدق في خوف وأضيق تنفسي فأثرت ألا أفتحه ولكن تذكرت مساعدي وهو يخبرني أنها أوراق مهمة ولكن أياً كان لا يهم أنا عبقري ولا شيء سيقف في طريقي.

أمسكت الحافظة في غضب وألقيتها في صندوق القمامة ولكنها سقطت بداخله مفتوحة، وهنا شعرت بقلبي يقف وأنا أحدق في هذا المشهد، أكاد أجزم بأنني شعرت بروحي تعبر من صدري لتصل إلى

أنفي ولكنني أخذت نفس عميق وحاولت أقناع نفسي بأنه ليس كتاب انه حافظة مستندات.

ولكن هيهات، فلازلت أشعر أنه سيأتي، تجمدت في مكاني، أنتظر ما سيحدث، أستمع إلى نبضاتي، هدوء قاتل في الغرفة ذات الأضاءة الخافتة، أخيراً ألتفت خلفي وحولي ولكن لم أجد شيء فتنفست الصعداء وجلست على كرسي الأنتظار أمام مكتبي ألتقت أنفاسي.

منذ ذلك الحين أخبرت كل من هم حولي بأن لا يعطوني كتاب أو أي شيء يشبه الكتاب وقد أقنعتهم أنني أصبت بفوبيا منهم بسبب كثرة الدراسة، أنا أعلم أنهم لم يقتنعوا ولكن علي أن أفعل شيء لكي أنجوا خصوصاُ بوجود ذلك الوشم الذي لا يزول مهما قمت بعمليات تجميلية فهو دائماً ما يعاود الظهور، أنها لعنة.

بدأت الكوابيس تطاردني مؤخراً، بأنه يتم ألتهامي حياً وقد شعرت بكل ذرة آلم ، كتب تركض خلفي يخرج منها أطفال يحملون سكاكين عملاقة والدماء تنهمر من أفواههم، أستيقظ فزعاُ في كل مرة

وأنا المس جسدي لأتأكد من أنني لأزال قطعة واحدة، لابد أن ساكن الكتاب قد بدأ صبره ينفذ ويود ألتهامي.

لم أستطع النوم ألا بالمهدئات ورحت أتفادى الخروج من المنزل خوفاً من أن تمسك يدي بكتاب ويسقط مني فينفتح فأؤكل حياً.

حتى جاء يوم عيد ميلادي وأخرجني أهلي من قصري بالقوة لحضور حفل أقاموه لي بعد أن وعدوني بأنه سيكون عائلي فقط، وأن لا أحد سيهديني كتاب، وبالفعل دخلنا مطعم فخم، لا أحد فيه سوى عائلتي الصغيرة، تنتصفه طاولة وضع عليها كعكة كبيرة بيضاء حولها بعض الهدايا المعدودة.

نفخنا الشموع وبدأ كل واحد فيهم بتقديم هديته لي، ساعة ذهبية، ملابس جديدة، أشياء أعتيادية وأخيراً جاء الدور على أخي الأكبر الذي قدم لي هدية مستطيلة مغلفة، شككت بأنه قد يكون كتاب بعد أن أمسكتها، فأرتعشت يدي وشعرت في هذه اللحظة كأنني أحمل قنبلة موقوتة، فوضعت الهدية بحذر على أحدى الطاولات متجاهلاً

أصرار أخي الأكبر على أن الهدية ليست كتاب، فأمسكها فجأة بعصبية وأزاح الغلاف من حولها ليظهر صندوق خشبي مزخرف.

أخبرني في غضب بأنه صندوق موسيقى ثمين جداً عمره أكثر من مائة عام وقد عانى كثيراً حتى حصل عليه، أبتسمت له للتخفيف من غضبه غير المعهود وأخذت الصندوق منه وانا في شوق بالغ لأفتحه وأسمع تلك الموسيقى التي يتجاوز عمرها المئة عام.

أمسكت الغطاء وبهدوء تام فتحته وكان أول ما وقع بصري عليه هو تلك الأوراق التي أنفتحت معه، قفز قلبي خارج القفص الصدري حتى وصل إلى حلقي وشعرت بنيران داخل صدري لأنني أدركت ما فعلت.

لقد فتحت كتاب مموه في هيئة صندوق

سمعت أخي الكبير وهو يضحك من خلفي قبل أن يعتذر ويقول:

- لقد وعدني ساكن الكتاب بالثورة الهائلة أن تخلصت منك.

لم ألتفت إليه، أنها الغيرة هي من جعلته يفعل هذا، هو من أخذ الكتاب حين أغمى علي، وهنا لم أستطع رفع عيني من صفحات الكتاب المفتوح بين يدي التي تجمدت عضلاتها، شعرت بحركة على كفي فنقلت بصري المرتعش ببطء إلى الوشم على كفي اليمنى، كان الوشم يهتز كالهاتف، تصببت عرقاً وأنا أحاول أن أصرخ ولكن بلا فائدة فصوتي لم يخرج وفي ثوان خرجت يد ذات ذراع طويلة وتمسك بسكين ضخم من الوشم وبسرعة خاطفة أنهت على شرايين عنقي.

سقطت على الأرض والدماء الساخنة تنهمر على جسدي وسط صرخات دوت في المكان كله وأخر ما رأت عيناي هو أخي التي كانت الصدمة واضحة في عينيه.